لماذا ستخسر روسيا المعركة العسكرية في سوريا؟
الكاتب : علي حسين باكير
التاريخ : 8 ديسمبر 2015 م
المشاهدات : 6251

عندما ننظر إلى التطورات الجارية اليوم في منطقتنا العربية، من المهم جدا أن ندرس التاريخ ليس من أجل التفاخر به أو استخدامه كأداة وإنما لاستذكار الدروس والعبر التي حملها معه. في عام 2003 غزت الولايات المتّحدة على رأس تحالف دولي أقامته العراق، ولا زالت المنطقة تعاني حتى اليوم من آثار هذا الغزو وتداعياته. لكن مجال النقاش لا يتعلق بهذا الأمر بقدر ما يتعلق بالدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من هذا المشهد حتى يومنا هذا.

الحروب التي شنّت ضد العراق وفيه منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، تشمل عددا كبيرا من النماذج سواء عن المعارك النظامية أو التقليدية أو عن المعارك مع فاعلين غير حكوميين، أو عن معارك بين الفاعلين غير الحكوميين والاحتلال، ومعارك بينهم وبين بعضهم مع بعض، ومعارك ضد الإرهاب ومعارك بين الإرهابين، ومعارك أو حروب بالوكالة... إلخ.

وبالمقارنة بين ما تحاول أن تقوم به روسيا اليوم في سوريا وبين الدروس المستخلصة من الحروب الكثيرة والعديدة التي شهدها العراق، باستطاعتنا القول إنّ روسيا ستخسر معركتها العسكرية في سوريا إن هي قررت فعلا المضي بها حتى النهاية.

وهناك ثلاثة دروس يجب الإشارة إليها في هذا المجال:

1)الحملات الجوية لا تحسم أي معركة على الأرض.

من المتعارف عليه في حروب القرن الواحد والعشرين أن الحملات الجوّية لا تحسم المعركة، خاصة إذا ما كانت موجّهة ضد جماعات أو فاعلين غير حكوميين، وأنّ هذا النوع من المعارك يحتاج إلى قوات على الأرض.

حتى الآن تركّز موسكو على الحملات الجوّية المدمّرة والعشوائية أيضا، ومهما استمرت هذه الحملة، فمن غير المتوقّع لها أن تنجح إلا إذا كان هناك من يقوم بهمّة القوّات البريّة على الأرض.

في بداية العمليات العسكرية الروسية قام الإيرانيون بأخذ دور الريادة في قيادة القوات البريّة التي تضم قوات من الحرس الثوري وقوات من ميليشيات شيعية متعددة؛ بدءا بحزب الله ومرورا بالميليشيات العراقية وليس انتهاء بالميليشيات الأفغانية

والباكستانية، لكنّ هذه القوات الأرضية منيت بخسائر عظيمة، رغم المساندة التي تلقتها من قوات نظام الأسد.

وطالما أنّ المشكلة الأساسية المتعلّقة بعدم امتلاك الأسد لقوات بريّة قادرة على الانتصار والتمدد والسيطرة على الأرض (وهو أمر غير ممكن إلى الآن)، فإن الحملات الجوية الروسية لن تؤدي في نهاية المطاف إلا إلى ارتكاب المزيد من الإجرام والقتل بحق المدنيين، مما من شأنه أن ينعكس بشكل سلبي عليها.

تدمير البنى التحتيّة أو قتل المزيد من البشر ليس انتصارا والعبرة في النتيجة النهائية.

في هذه الوضعية، ستضطر موسكو أن تعلن عن إفلاس مهمّتها الجوية والتدميرية، أو عن إرسال المزيد من القوات البريّة. الخيار الأول بطبيعة الحال سيكون بمنزلة إقرار رسمي بالهزيمة.

أما الخيار الثاني فسيقودها إلى النتيجة نفسها مع فارق أنّ تكاليفها لناحية الخسائر المالية والعسكرية والبشرية ستكون أكبر، لأنها ستكون هدفا أسهل للمجموعات التي توجد على الأرض.

2) تركيبة سوريا الديمغرافية لا تسمح بنفوذ روسي دائم.

على فرض أنّ روسيا استطاعت من خلال القصف الجوي إجبار المعارضة السياسية السورية على الجلوس إلى طاولة المفاوضات مع عناصر من النظام السوري، من غير المفهوم كيف من الممكن أن تضمن روسيا حماية مصالحها في سوريا إذا كانت الغالبية العظمى من السوريين تنظر إليها بصفتها دولة محتلة وغازية ومجرمة.

تعويل روسيا على فئات معيّنة داخل بعض الأقليات لن يضمن لها استمرارا لنفوذها أو حماية لمصالحها.

مرة أخرى نعود إلى التجربة الأمريكية في العراق، رغم أنّ واشنطن ادّعت أنّها تتدخل بالنيابة عمّا سمّته أو اعتبرته أكثرية، فإن المقاومة العراقية بقيت تخوض معها صراعا مفتوحا لسنوات، دون أن تتمكن واشنطن من القضاء عليها، وعندما عمدت إلى الفتك بخصومها بمختلف الوسائل غير المشروعة، ولد لدينا تنظيم القاعدة وبعدها تنظيم داعش.

3) نفوذ الدول الإقليمية أقوى من النفوذ الروسي.

مهما زادت موسكو من ثقلها العسكري في سوريا جويا أو بريا أو بحريا، تبقى لديها نقاط ضعف قاتلة في سوريا. سوريا بعيدة جدا عن الحدود الروسية، ولا يوجد لدى موسكو قواعد برية أو بحرية في المحيط السوري، تسمح لها بأن تكون بمنزلة قواعد خلفية لإبقاء الإمدادات متاحة في أي وقت، أو لزيادة الدعم العسكري بشكل سريع. قواتها العسكرية البحرية على سبيل المثال تأتي إلى المتوسط عبر مضيقي البسفور والدردنيل اللذين تسيطر عليهما تركيا.

وعلى الرغم من ابتكار الصواريخ العابرة للقارات، فإن للجغرافيا بطبيعة الحال قواعدها الثابتة، ونفوذ تركيا بصفتها دولة إقليمية كبرى مجاورة لسوريا، سيكون أقوى بكثير من نفوذ موسكو. وحتى إذا افترضنا أنّ موسكو استطاعت تسجيل بعض الانتصارات في بعض المعارك، فلن يحول ذلك دون أن تسود هذه القاعدة في نهاية المطاف، سواء أبقت موسكو بعض القواعد العسكرية لها داخل سوريا أم لم تبقها.

جميعنا يعرف هذا الدرس جيدا، وقد سبق أن شهدناه في العراق، مع فارق أنّ الدول العربية حينها قد تنازلت عن دورها فأبقت الساحة مشرّعة أمام النفوذ الإيراني حصرا، وأصبحت إيران تدير العراق بشكل كامل إلى اليوم، على الرغم من أنّ واشنطن أبقته محتلا بشكل مباشر لثماني سنوات.

لا بد أن نشير أيضا إلى أنّ روسيا ليست الولايات المتّحدة، وإذا كانت واشنطن قد عانت ولا تزال تعاني من موازنات تمويل معاركها الخارجية في العقد والنصف الأخير، فإن موسكو لا تمتلك حقيقة ما يخوّلها أصلا أن تخصص موازنات لمعارك طويلة الأمد، كما أنّ معظم معاركها السابقة كانت في المحيط الجغرافي الذي ضم دول الاتحاد السوفيتي سابقا، وليس هناك مجال للمقارنة بينها وبين أي معركة مفترضة طويلة الأمد في سوريا.

التدخل الروسي في سوريا لم يأت بناء على قرار من مجلس الأمن، ولم تقم روسيا عند التدخل بالتشاور مع أحد، وهي لم تأخذ أيضا مصالح دول المنطقة بعين الاعتبار لاسيما الدول المتضررة من نظام الأسد، التي سيكون موقفها مهما لاحقا لناحية تحديد مدى مقدرة موسكو على تحقيق أهدافها النهائية في سوريا، أو فشلها في ذلك، أو ربما غرقها، وهو درس ستعلم أهميّته ربما قريبا.

عربى21

المصادر: